تولكابيام: درة الأدب التاميلي في السياق العالمي

الدكتور ك. م. ع. أحمد زبير *

ملخص البحث:

يُعَدّ تولكابيام من أبرز الأعمال الكلاسيكية في التراث اللغوي والأدبي التاميلي؛ إذ يقدم منظومة متكاملة من القواعد والمفاهيم التي تتناول اللغة والأدب من زوايا لغوية وفلسفية ونقدية متعددة. ويتجاوز هذا المؤلَّف حدود الدراسة النحوية التقليدية, ليقدم رؤية شاملة للعلاقة بين اللغة والأدب والمجتمع, وينظر إلى الأدب بوصفه نتاجًا اجتماعيًا يؤثر في المجتمع ويتأثر به في الوقت نفسه.

وتسعى هذه الدراسة إلى إبراز جوانب العمق المعرفي في تولكابيام, من خلال التعريف ببعض آرائه ونظرياته في الصوتيات والصرف والنحو والدلالة والبلاغة والرمزية والنقد ونظرية الأدب, مع الإشارة إلى ما تنطوي عليه هذه الآراء من قيمة تتجاوز حدود اللغة التاميلية. كما تلفت الدراسة إلى أهمية ترجمة هذا العمل إلى اللغات الحية, ولا سيما العربية, بما يتيح للباحثين العرب التعرف إلى جانب مهم من التراث الفكري والأدبي للهند, ويسهم في توسيع آفاق الدراسات الأدبية واللغوية المقارنة.

---

* الأستاذ المشارك, القسم العربي, الكلية الجديدة, تشنائي – ٦٠٠٠١٤, الهند

الكلمات المفتاحية :تولكابيام, اللغة التاميلية, التراث الأدبي, التحليل اللغوي, النقد الأدبي, الترجمة.

مقدمة

يمثل تولكابيام عملًا كلاسيكيًا بارزًا في تاريخ اللغة التاميلية, ويتجاوز في سعته وتعدد موضوعاته حدود الإنجاز الفردي المعتاد في كثير من المؤلفات القديمة. فالعديد من القواعد والملاحظات المتعلقة باللغة والشعر التي يعالجها هذا النص تحمل طابعًا عامًا, وتتيح مقارنتها بنظريات لغوية وأدبية ظهرت في ثقافات أخرى في عصور لاحقة.

ويشتمل الكتاب على ملاحظات دقيقة في علم الأصوات, والبنية الصوتية, والصرف, والنحو, والدلالة, إلى جانب مسائل تتصل بالشعر والأدب. ومن هذا المنطلق يمكن النظر إليه بوصفه واحدًا من الأعمال الكبرى التي أبدعها العقل الإنساني في مجال التأمل في اللغة والأدب.

ومع ذلك, فإن تولكابيام لا يحظى بحضور مناسب في الدراسات اللغوية والأدبية العربية المعاصرة, ويبدو أن من أسباب ذلك عدم توافر ترجمة عربية علمية واضحة وميسرة لهذا العمل.

والواقع أن اللغة التاميلية وآدابها توفران مادة خصبة للدراسات المقارنة؛ فقد عُرف التراث التاميلي بانفتاحه على الثقافات والأفكار المختلفة. ويشير الباحث في هذا السياق إلى أن تولكابيار نفسه تحدث عن الترجمة بوصفها وسيلة من وسائل التعبير, كما ظهر بعده عدد كبير من المبدعين التاميل الذين اتسمت أعمالهم بأفق إنساني واسع.

ويعد تيروكورال مثالًا بارزًا في هذا السياق, إذ يقوم على أفكار ذات طابع إنساني عام, كما وجدت ديانات ذات أصول غير تاميلية, مثل البوذية والجاينية, مجالًا رحبًا للتعبير في الأدب التاميلي. وكذلك كان عدد من كبار الشعراء, ومنهم الشاعر الملحمي كمبان, منفتحين على مصادر ثقافية متعددة.

ولم يكن إبداع هؤلاء الأدباء مقصورًا, في جوهره, على شعب واحد أو ثقافة واحدة؛ فالأعمال العظيمة تتجاوز حدود الزمان والعرق والبيئة, وتغدو جزءًا من التراث الإنساني المشترك. ومن هنا تصبح الترجمة والتفاعل بين الثقافات من العلامات المهمة على حيوية الآداب ونضجها.

تولكابيام: البناء والمحتوى

تولكابيام مؤلف شامل في اللغة والشعر باللغة التاميلية, ينسب إلى تولكابيار, ويذهب الطرح الذي تتبناه هذه الدراسة إلى أن تأليفه يعود إلى قرون سبقت بداية العصر الميلادي.

ويضم الكتاب مجموعة منظمة من القواعد والمعايير التي تصف الاستعمال اللغوي وتتناول نظرية الأدب. ويشير الباحث إلى وجود نحو 240إشارة في الكتاب إلى مصادر سابقة وآراء موروثة, من قبيل: «هكذا تقول القاعدة العلمية», و«هكذا ورثت», و«هكذا جرى الاستعمال عند الأدباء», و«وهو الاستعمال القديم الذي أُقر», و«ولم ينكره العلماء». ويرى في ذلك دليلًا على وجود تقليد نحوي وشعري وأدبي متطور سبق عصر تولكابيار.

ومن ثم يمكن النظر إلى تولكابيام بوصفه حصيلة لخبرات لغوية وأدبية متراكمة, جمع مؤلفه بينها وبين ملاحظاته على الاستعمال اللغوي في عصره.

ويتكون العمل, بحسب النص الذي تعتمد عليه الدراسة, من 1602بيتًا من الصياغة الموجزة المعروفة باسم نورباء, وهي عبارات شعرية مكثفة تصاغ فيها القواعد والأحكام.

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

١. إيلوتاتيكارام :(Eḷuttatikāram) ويتناول علم الأصوات والكتابة، ويضم ٤٨٣ بيتًا.

٢. سولّاتيكارام :(Collatikāram) ويعالج الصرف والنحو، ويضم ٤٦٣ بيتًا.

٣. بورولاتيكارام :(Poruḷatikāram) ويتناول الدلالة والشعر ونظرية الأدب، ويضم ٦٥٦ بيتًا.

ويشتمل كل قسم من الأقسام الثلاثة على تسعة فصول، وهو ما يمنح الكتاب بناءً داخليًا منظمًا.

القسم الأول: إيلوتاتيكارام

يتناول هذا القسم نظام الأبجدية التاميلية، وخصائص الحروف في صورتيها المنطوقة والمكتوبة، وأعضاء النطق، ومواضع إنتاج الأصوات وكيفياتها، والحذف والإدغام، والبنية الصرفية الصوتية، ونظام الحالات الإعرابية وغيرها من القضايا.

القسم الثاني: سولّاتيكارام

يركز هذا القسم على الصرف والنحو، وتصنيف الكلمات، وقواعد التركيب، والتصريف، والأفعال، وغير ذلك من المسائل، كما يشتمل على إشارات أولية إلى قضايا معجمية وتأثيلية.

القسم الثالث: بورولاتيكارام

يناقش هذا القسم بناء الأدب المتصل بعالمي أكام وبورام، أي المجال الداخلي والمجال الخارجي في التجربة الإنسانية، كما يتناول الإبداع الأدبي، ونظرية الأدب، والعواطف، والأوزان، والصور البلاغية، والخطاب، إلى جانب ما يتصل بعلم اجتماع الأدب وعلم النفس الأدبي.

وبذلك يجمع تولكابيام بين الصوتيات والصرف والنحو والدلالة واللهجات من جهة، والشعر والأوزان والبلاغة ونظرية الأدب من جهة أخرى، ويضع هذه المعارف في سياق الحياة الإنسانية والطبيعة.

ولا يقتصر الكتاب، وفق هذه القراءة، على الوصف اللغوي المجرد، بل يتيح كذلك قراءته في ضوء علم الاجتماع اللغوي والأنثروبولوجيا وعلم نفس اللغة والتداولية وعلوم الاتصال.

ويرى الباحث أن اتساع موضوعاته وتكاملها يجعلان مقارنته الأنسب لا بكتاب منفرد في ثقافة أخرى، وإنما بالتراث المتراكم في الدراسات اللغوية والنقدية لدى الحضارات القديمة.

وقد نقل الباحث عن Xavier S. Thani Nayakamقوله إن طبيعة محتوى تولكابيام تتيح افتراض وجود ثقافة أدبية مزدهرة سبقت زمن تأليفه بعدة قرون.[1]

اللغة بين الاستعمال الأدبي والاستعمال الحي

يظهر تولكابيار، في قراءة الباحث، وعيًا بحيوية اللغة وتغيرها من خلال الاستعمال، كما يحرص على إقامة صلة بين الموروث اللغوي وبين الاستعمال المعاصر.

ولهذا يتحدث عن ضرورة المقارنة بين اللهجة الأدبية Ceyyularuواللهجة المتداولة Valakkaru، وعن أهمية مراعاة الاستعمال الفعلي إلى جانب القواعد.

ويؤكد أحد النصوص المنسوبة إلى تولكابيام ضرورة تصنيف الظواهر وتحليلها في ضوء معايير الأدب والحياة مع عدم مخالفة قواعد الاستعمال.[2]

ومن هذه الزاوية يمكن القول إن الكتاب لا يتعامل مع اللغة بوصفها نظامًا جامدًا، وإنما بوصفها ظاهرة حية تتفاعل فيها القاعدة مع الاستعمال.

ويرى الباحث أن استمرار اللغة التاميلية لغة حية خلال فترة تاريخية طويلة يرتبط، من بين عوامل أخرى، بقدرتها على المحافظة على أصولها مع التكيف مع تحولات الاستعمال.

كما يرى أن عددًا من القضايا التي تناولها تولكابيار يمكن إعادة قراءتها في ضوء نظريات لغوية حديثة، مثل الدلالة التوليدية وبعض نماذج النحو ودراسات الحالة.

الإنسان في فلسفة تولكابيام اللغوية

تتناول الفصول الأولى من بورولاتيكارام جوانب متعددة من الحياة الإنسانية، بينما يتناول فصل مايباتتيال (Meyppāṭṭiyal) نظرية العواطف، ويعالج فصل آخر بنية الشعر وعلاقتها بأنماط التجربة الإنسانية.

وفي مارابييال (Marapiyal) تظهر عناية بالعالم غير البشري أيضًا، بينما يتناول القسم الثاني من الكتاب اللغة من منظور يرتبط بصورة مباشرة بالحياة والإنسان.

ويقسم تولكابيار الكلمات إلى فئتين أساسيتين بحسب المرجع الذي تدل عليه: فئة تتصل بالإنسان، وفئة تتصل بغير الإنسان. وترتبط الفئة الأولى بالكائنات البشرية التي تمتلك القدرة على التفكير، بينما تضم الثانية غير البشر والأشياء الأخرى.

وتشير الدراسة إلى أن التمييز بين المذكر والمؤنث في الفئة البشرية يقوم على المعنى، أي على جنس الشخص الذي تشير إليه الكلمة، في حين تعامل كلمات الفئة غير البشرية معاملة تختلف عن ذلك في النظام النحوي.

ومن هنا يرى الباحث أن فلسفة اللغة في تولكابيام تنزع إلى وضع الإنسان في مركز السياق اللغوي، وتحقيق نوع من التوازن بين البنية الشكلية للغة وحقائق الحياة الإنسانية وغير الإنسانية. كما أن عددًا كبيرًا من قواعد الاستعمال يرتبط بالأعراف الاجتماعية والثقافية.

ثنائية أكام وبورام

يعرض تولكابيام رؤية متكاملة للثقافة التاميلية الكلاسيكية من خلال ثنائية أكام (Akam)وبورام.(Puram)

ويمثل أكام المجال الداخلي والحميمي من التجربة الإنسانية، ولا سيما الحب والعلاقات العاطفية، بينما يتعلق بورام بالعالم الخارجي وما يرتبط به من البطولة والسلطة والشهرة والحرب والمجتمع.

ومن السمات المهمة في شعر أكام عدم تسمية الشخصيات بأسمائها الخاصة, وهو ما يمنح البطل والبطلة طابعًا إنسانيًا عامًا, ويجعل تجربتهما قابلة للتجاوز من الخاص المحلي إلى المشترك الإنساني.

ويعرض هذا الأدب تقلبات مشاعر المحبين, وتطور العلاقة من اللقاء الأول إلى الحياة الزوجية, وما يصاحب ذلك من عناصر نفسية واجتماعية, إلى جانب حضور الطبيعة بوصفها إطارًا متعاطفًا مع التجربة الإنسانية.

أما عالم بورام فيقدم الإنسان في المجال العام, وهو يسعى إلى المجد والسلطة والشهرة, ويواجه تحديات الحياة والصراع والمجتمع.

وبذلك تمثل الثنائية مجالين متكاملين في التجربة الإنسانية: الداخل والخارج, والعاطفة والفعل, والخاص والعام.

نظرية الأدب والبعد الاجتماعي

لا يقتصر القسم الثالث من تولكابيام على تعداد الخصائص الشكلية للعمل الأدبي, بل يشتمل, كما ترى الدراسة, على تصور متكامل لنظرية الأدب.

ويفتح الفصل المتعلق بالتشبيه مجالًا لفهم أنماط الصور ووظائفها في الشعر, بينما تكشف معالجة اللغة والأدب عن وعي بالعلاقة بين النص والمجتمع.

فاللغة مؤسسة اجتماعية, والأدب يستخدم هذه اللغة ويولد في بيئة اجتماعية, ومن ثم يمكن أن يكون الأدب نتيجة لعوامل اجتماعية, كما يمكنه, في الوقت ذاته, أن يكون عاملًا مؤثرًا في المجتمع.

وتبرز في هذا السياق ملامح فلسفة أدبية تربط الإبداع بالإنسان والمجتمع والثقافة.[2]

القيمة العالمية لتولكابيام

يرى الباحث أن تولكابيام يستحق موقعًا بارزًا ضمن التراث الأدبي واللغوي العالمي؛ لما يتضمنه من أفكار تتصل بعلوم الاتصال والرمزية ونظريات القراءة وعلاقة المتلقي بالنص, فضلًا عن النظريات اللغوية.

ومن بين الأفكار التي تشير إليها الدراسة:

- إسناد صفات حركية أو ديناميكية إلى أشياء ثابتة.
- إسناد وظائف تواصلية إلى أشياء لم توضع أصلًا لهذه الوظائف.
- استخدام مثل هذه الإسنادات بوصفها إشارات استعارية إلى طبيعة الأشياء.

وترى الدراسة في هذه الظواهر مظهرًا من مظاهر التفكير في الرمز والاستعارة وطبيعة العلاقة بين اللغة والعالم.[3]

كما أن تحليل شخصيات أكام لا يقف عند حدود رسم الشخصيات، بل ينفتح على الأبعاد النفسية والعاطفية للعلاقة الإنسانية.

أما عالم بورام فيمثل السعي إلى القوة والشهرة والمكانة والشجاعة، ويكشف عن أبعاد أخرى من الطبيعة الإنسانية.

وتؤدي عناصر الطبيعة والأحياء والنباتات في التصوير الأدبي دورًا مهمًا، ولا سيما في المفاهيم التي يسميها النص Karupporulو.Mudarporul

كما يشير الباحث إلى مفهومي Ullurai وIraicci بوصفهما من وسائل التعبير غير المباشر والتصوير الشعري التي تمنح المعنى أبعادًا رمزية إضافية.

وتوفر دراسة العواطف في Meyppāṭṭiyal، إلى جانب الأشكال الإيقاعية والأسلوبية وطرائق بناء المعنى الشعري، مادة تصلح للمقارنة بنظريات الأدب والنقد في الثقافات الأخرى.

الحاجة إلى ترجمة تولكاببيام إلى العربية

تبدو الحاجة ملحة إلى ترجمة تولكابيام إلى اللغة العربية ترجمة علمية موثوقة؛ لأن غياب الترجمات الدقيقة والميسرة لكثير من النصوص التاميلية القديمة يحد من حضور هذا التراث في الدراسات العربية المقارنة.

ولا تكمن صعوبة ترجمة تولكابيام في اللغة وحدها، وإنما أيضًا في طبيعة نصه المكثف، وما يشتمل عليه من مصطلحات لغوية ونقدية ذات دلالات خاصة.

فالنصوص فيه موجزة إلى درجة تجعل كل كلمة أو وحدة صرفية ذات قيمة دلالية كبيرة.

ومن الأمثلة التي أوردتها الدراسة النص التاميلي:

«பொருண்மை தெரிதலும் சொன்மை தெரிதலும் சொல்லின் ஆகும் என்மனார் புலவர்»

وتشير إحالة الباحث إلى أنه من الفصل الثالث، البيت ٦٤١.[4]

ويورد البحث كذلك نصًا آخر يفسره بمعنى أن «ذكاء المتعلم هو المفتاح لفتح دلالة الكلمة»، وينسبه إلى الفصل الثامن، البيت ٨٧٦.[5]

وتبين هذه الأمثلة أن المترجم قد يضطر، في بعض المواضع، إلى الانتقال من الترجمة الحرفية الموجزة إلى ترجمة تفسيرية، حتى يستطيع نقل المقصود العلمي للنص.

ومن ثم فإن ترجمة تولكابيام تحتاج إلى تعاون بين المتخصص في اللغة التاميلية والمتخصص في العربية والباحث في اللسانيات والنقد، حتى تحافظ الترجمة على دقة المصطلح وخصوصية النص، وتكون في الوقت نفسه واضحة للباحث العربي.

الخاتمة

يتضح مما سبق أن تولكابيام ليس مجرد كتاب في قواعد اللغة أو الأدب، بل هو مؤلف موسوعي يجمع بين دراسة اللغة والصوت والصرف والنحو والدلالة وبين الشعر والبلاغة ونظرية الأدب والثقافة.

وتكشف الموضوعات التي يعالجها عن رؤية تتجاوز حدود الوصف اللغوي إلى التفكير في علاقة اللغة بالإنسان والمجتمع، وفي طبيعة الإبداع والعاطفة والرمز والتلقي.

كما تبرز قيمة الكتاب في إمكان مقارنته بتقاليد لغوية ونقدية أخرى، الأمر الذي يمنحه أهمية خاصة في مجال الدراسات المقارنة.

ومن هنا تمثل ترجمته إلى العربية خطوة مهمة في التعريف بالتراث التاميلي، وإثراء الدراسات العربية في الأدب واللغة والنقد، وفتح مجال أوسع للحوار بين الثقافتين العربية والهندية.

غير أن مثل هذه الترجمة ينبغي أن تقوم على أساس علمي دقيق، وأن تراعي المصطلحات التاميلية وخصوصية النص وسياقه الثقافي، حتى تستطيع نقل هذا التراث إلى القارئ العربي بصورة تليق بقيمته التاريخية والعلمية.

الهوامش

1. Xavier S. Thani Nayakam, “The Content of Tolkāppiyam,” *Journal of Tamil Studies*, Vol. 8, No. 1 (September 1972), p. 62.
2. *Tolkappiyam*, Chapter 4, Verse 946. (Translation).
3. *Tolkappiyam*, Chapter 4, Verse 905. (Translation).
4. *Tolkappiyam*, Chapter 3, Verse 641. (Translation).
5. *Tolkappiyam*, Chapter 8, Verse 876. (Translation).

المصادر والمراجع:

١. تيرومـوالر، تاميل"الثيروكـال: حكمـة الحكمـة الهنديـة"، ترجمـة أحمـد عبـد الرحمن، دار الفكر العربي، ٢٠٠٥م.

٢. جونسون، روبرت، "التراث الأدبي في الهند القديمة" منشورات الجامعة الأمريكية، ٢٠١٠م.
٣. أحمد، محمد» .الأدب الهندي وتأثيره على الفكر العربي«، مجلة الدراسات التراثية، العدد ١٢، ٢٠١٢م.
٤. الموسوعة العربية العالمية، مادة "الثيروكال"، الجزء ١٥، طبعة ٢٠١٨م.
٥. ناصر، فاطمة"الأسلوب البلاغي في الأديان الشرقية"مجلة اللغة والأدب، العدد ٧، ٢٠١٥م.
٦. منظمة اليونسكو .*التراث الثقافي الهندي وتأثيره العالمي*، ٢٠١٩م، متوفر على الإنترنت: www.unesco.org.
٧. أحمد، يوسف "الملامح الفلسفية في الثيروكال"، دراسات أدبية، دار النشر، ٢٠١٤م.

..... ***** .....